بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

لقيتْ هذه الدراسةُ من تشجيع الباحثين المشكور مادفعنى إلى أن أُنمِّيَهَا فى طبعتها الثانية بما أضفتُ إليها من مواد جديدة ، وهى مواد لا تغير شيئاً فى النظرية التى قامت عليها ، وهى أن شعرنا العربى تطور مع الزمن فى مذاهب ثلاثة : مذاهب الصَّنْعة والتَّصْنيع والتصنُّع ، بل هى تدعمها وتوثِّق مقدماتها ونتائجها .

وبنفس هذه الغاية رجعتُ أنظر فى فصول الكتاب حين أخذت فى إعداده للطبع مرة رابعة ، أريد أن أستوفى معانيه وحقائق مذاهبه بقدر ما أستطيع ، وأنا فى أثناء ذلك تارة أنقِّح ما سبق أن كتبت ، وتارة أضيف زيادات جديدة ، كما أضيف بعض الأمثلة والشواهد لغرض تمام التوضيح وكمال البيان .

ورأيت أن أعيد كتابة الفصل الثالث من الكتاب الأول الخاص بالصنعة والتصنيع وتقابلهما فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، حتى أبسط الحديث فى العلاقات الجديدة المادية والمعنوية التى أثرت تأثيراً واسعاً فى الشعر العباسى وهى كثيرة . منها ما يتصل بالسياسة والدعوة العباسية ، ومنها ما يتصل بالجنس ونَزعاته ، ومنها ما يتصل بالحضارة والتراث الثقافى الأجنبى الذى انتقل إلى العربية . ومنها ما يتصل باللغة وما جَدَّ فيها من أسلوب المولَّدين ، وهو أسلوب مبسَّط شفاف ليس فيه إغراب ولا ابتذال ، أسلوب يقوم على الألفاظ الواسطة التى لا تهبط إلى لغة الدَّهماء والعامة ولا ترتفع إلى لغة الأعراب الحوشيَّة ، مع الجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً مع العذوبة والرشاقة والحلاوة . وهو أسلوب ينهض نهوضاً رائعاً بكل ما أُتيح للعقل العباسى من ذخائر الفكر ولطائف الذهن

وبدائع الخيال والتصوير ، مع تمثيل المجتمع بكل ما كان يخوض فيه .

ومن أهم ما يميِّز هذا الأسلوبَ أنه لا تنقطع فيه الصلةُ بين القديم والجديد ، فهو يحتفظ بخير ما فى القديم من ألفاظ ، وكل ما يُدخله عليها إنما هو التهذيب والتصفية والترويق ، وأيضاً فإنه يحتفظ بخير ما فى القديم من معان وصور ، وهو يشفع ذلك بدقائق الفكر العباسى الجديد واستنباطاته الخفية ومحاسن خياله الحديث وتصويراته المونقة البارعة .

وبذلك تطور الشعرُ فى العصر العباسى تطوراً مُثْمِراً . تتوثَّق فيه العلل والأسباب بين القديم والجديد توثقاً نحسُّ فيه ضرباً من المحافظة المنتجة الحية ، كما نحس فيه ضرباً من التحول مع العصر وكل ما يداخله من ألوان الحضارة والترف وآثار الثقافة والفكر العميق . وقد يتغلب عنصر التحول على عنصر المحافظة عند بعض الشعراء ، وقد يشوبون ذلك بضرب من الثورة على القدماء ، غير أن هذا لا يخرج بالشعر العباسى — حتى عند هؤلاء الثائرين — على أصوله التقليدية ، فالقديم يزاوج فيه الجديد مزاوجة تتيح له الخلوص من العقم والجمود ، كما تتيح له التطور الحى فى التعبير والتفكير والتصوير .

وقد حاولتُ فى هذه الطبعة أن أوضح هذا التطور للشعر العباسى ، ودرست أعلامَه الأولين الذين مهَّدوه وثبَّتوه ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم ابن الوليد ، حتى يستبين ازدهار مذهب الصنعة على أيديهم وما نشأ من مذهب التصنيع الجديد . ومن أجل ذلك كله أعَدْتُ كتابة فصل الصنعة والتصنيع ، وكل ما زدتُه أو أضفته إنما هو فى سبيل استكمال معانى هذه الدراسة الأدبية ومذاهبها الفنية . والله الهادى إلى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٥ من مارس سنة ١٩٦٠ شوقى ضيف

مقدمة الطبعة الأولى

حاولتُ فى هذا الكتاب أن أضع للشعر العربى مذاهب فنيه تفسر تطوره فى عصوره وأقاليمه المختلفة ، وقد صادفتنى مشكلتان أساسيتان . وهما : كيف أرتِّب هذا الركامَ الهائل من الشعر والشعراء الذى يمتد من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث ؟ ثم أى المصطلحات أتخذها للدلالة على مذاهب الشعراء ومناهجهم الفنية ؟ ورأيت أن أنحاز عن هذا الخليط المضطرب من الألفاظ الغربية التى نقلها بعض نقادنا المحدثين من مثل (كلاسيك) و (ورمانتيك) ونحوهما . فإن من الصعب أن نحمل أدبنا على مذاهب الأدب الغربى . وهو لا يمتُّ إليه بوشائج تاريخية ولا فنية . وذهبت أبحث فى الشعر العربى وموجاته المتعاقبة . فلم أجد فيه تجديداً واسعاً ، بل رأيته يستمر فى أغلب جوانبه بصورة واحدة . فدائماً مديح وهجاء وفخر ووصف وغزل . وجعلنى ذلك ألتفت إلى حقيقة مهمة . وهى أن التطور فى شعرنا العربى إنما كان فى الصناعة نفسها ، أى فى الفن الخالص وما يرتبط به من مصطلحات وتقاليد . حينئذ رأيت أن أضع له مذاهب على أساس صناعته والفن فيه .

ونظرتُ فى النقد العربى القديم ، فإذا النقاد يقسمون الشعراء قسمين كبيرين : قسماً سموه أصحاب الطبع ، وقسماً سموه أصحاب الصنعة. أما الأولون فهم الذين يسيرون وفق عمود الشعر الموروث ، فلا يُنمِّقُون ولا يتأنقون ولا يتكلفون ولا يُغْرِبون . وأما الأخيرون فهم الذين كانوا ينحرفون عن هذا العمود إلى التنميق والتأنق ، أو إلى الإغراب والتكلف . ورأيت أن هذا التقسيم لا يقوم على أساس صحيح . وما الطبع والمطبوعون فى الشعر والفن ؟ إن كل شعر متأثرٌ بجهد حاضر وموروث أكثر من تأثره بما يسميه نقادنا باسم الطبع .

وهل هناك شعر لا يعمد فيه صاحبه إلى بعض تقاليد فى أساليبه وموضوعاته ومعانيه ؟ إن من يرجع إلى العصر الجاهلى يجد الشعر خاضعاً لتقاليد ورسوم كثيرة يتوارثها الشعراء ، سواء فى ألفاظه ومعانيه ، أم فى أوزانه وقوافيه ، بحيث لا يستطيع مطلقاً أن يُذْعن لفكرة الطبع وما يُطْوَى فيها من أن الشعر فطرة وإلهام ، فقد كان الجاهليون يصنعون شعرهم صناعة ويعملونه عملاً ، وهم فى أثناء هذه الصناعة والعمل يخضعون لمصطلحات ورسوم كثيرة .

ونحن لا ننكر أن الشعر فى الأصل موهبة ، غير أن هذه الموهبة لا تلبث أن تتحول عند صاحبها إلى ممارسة ودراسة طويلة لتقاليد ومصطلحات موروثة فى تاريخ الفن ، وهو يتقيد بهذه التقاليد والمصطلحات فيما يصنعه ويعمله تقيداً شديداً . وكان العرب القدماء أنفسهم يسمون شعرهم صناعة . ويصفونه بأوصاف الصناعات ، وكذلك كان الشأن عند اليونان وعند الأمم الحديثة جميعاً ؛ ومن أجل ذلك كان النقاد فى الأمم الغربية يقرنون الشعر إلى النحت والتصوير والرقص والموسيقى ، فمثله مثل هذه الأعمال الفنية يقوم على جهد وكَدْح . وهذا كله دفعنى إلى أن أرفض فكرة تقسيم الشعراء إلى أصحاب طبع وأصحاب صنعة ، حتى فى العصر الجاهلى ، إذ كان الشعراء جميعاً أصحاب صنعة وجهد وتكلف ، فقد حدثنا الرواة أن منهم من كان ينظم القصيدة فى حول كامل . وليس من شك فى أن من يتابع الشاعر الجاهلى يحس إحساساً واضحاً بأنه كان يُقْبل على صناعته إقبال الصانع على حرفته ، فهو يوفِّر فيها رسوماً وتقاليد كثيرة ؛ وهذا نفسه هو الذى جعلنى أتخذ كلمة الصنعة التى استخدمها النقاد القدماء للدلالة على أول مذهب يقابلنا فى الشعر العربى ، واتخذت زهيراً رمزاً لهذا المذهب ، ووصفت فنه فى شعره ووضحت ما يرتبط به فى صناعته من قواعد وتقاليد . واستمرت صورة هذا المذهب عند زهير مسيطرة مع ضعف أو قوة على الشعراء فى العصرين الجاهلى والإسلامى . ورأيت أن أربط بهذه الصورة من الفن والصناعة الشعرَ الغنائىَّ الخالص الذى كان يُصْحَبُ بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية من العصر الجاهلى إلى العصر

العباسى ، فإن أصحابه لا يخرجون به — عادة — إلى زخرف وتنميق .

ولما انتقلت إلى العصر العباسى وجدت صناعة الشعر التقليدى شعر المديح والهجاء ترقى وتتحضر ؛ فقد دارت عجلة الزمن ، وانتقل صانع الشعر من البادية إلى المدينة . ودخلت فى الشعر العربىّ فى أثناء ذلك عناصر جديدة من الحضارة والجنس والثقافة ، وكان المذهب القديم مذهب زهير أو مذهب الصنعة والصانعين قائماً ، بينما ظهر بجانبه مذهب جديد كان يعتمد على الزخرف والزينة ، فالشعر — فى رأى أصحابه — حَلْىٌ وترصيع وبديع . ومَثَّلَ هذا المذهبَ الجديد فى القرنين الثانى والثالث مسلم بن الوليد ، ثم أبو تمام وابن المعتز ، بينما مَثَّلَ المذهبَ القديم بشّار وأبو نواس ثم البحترى وابن الرومى . ولما خرجت إلى القرن الرابع رأيت مذهباً جديداً يعمّ فنَّ الشعر وصناعته ، وهو مذهب كان يقوم على إعادة الصور المطروقة والمعانى الموروثة بأساليب من اللف والدوران وإتيان المعنى من بعيد ، ثم يحاول الشاعر بعد ذلك أن يضيف تعقيداً إلى أساليب الزخرف والتنميق السابقة أو يضيف تعابير وتراكيب شاذة من نحو غريب ، أو تشيُّع ، أو تصوف ، أو تفلسف ، وما لبث أبو العلاء أن أوفى بهذا المذهب إلى غايته من التعقيد الشديد فى لغته وأوزانه وما كان يتصنَّع له من لوازم مختلفة عرضنا لها فى موضعها من هذا الكتاب .

تردَّدتُ ماذا أسمى هذين المذهبين العباسيين بالقياس إلى مذهب الصنعة القديم ؟ وأخيراً رأيت أن أسميهما على التعاقب باسم مذهبى التَّصْنيع والتصنُّع . والتصنيع فى اللغة الزخرف والتنميق . أما التصنع فهو التطرف فى التكلف وما ينطوى فى ذلك من تعمّل وتعقيد ، وكان قد بدا لى أن أسمى هذه المذاهب على الترتيب بأسماء الصنعة والزخرف والتعقيد ، ولكنى آثرت التسمية الأولى لأن تشابك الألفاظ فيها يدل على حقيقة دقيقة . وهى أن المذاهب الفنية فى صناعة الشعر العربى لا يفترق بعضها عن بعض مفارق واسعةً فى المعانى والموضوعات والأوزان والقوافى ، إنما تستقر مفارقها فى الصياغة والأسلوب .

هذه هى المراحل التى مرّ بها الفن أو مرت بها الصناعة فى شعرنا العربى ،

فقد بدأ بمذهب الصنعة ، ثم انتقل إلى مذهب التصنيع ، ثم انتهى أخيراً إلى مذهب التصنع ، وجمد الشعراء عند هذه المذاهب ولم يتجاوزوها إلى مذهب جديد ، وكأنما جفت منابع القوة الدافعة التى كانت تحدث المذاهب فى الشعر والفن . وبحثتُ هذه المذاهب فى الأندلس ومصر ، فإذا شخصية مصر أتم وضوحاً فى تاريخ الشعر العربى من شخصية الأندلس على نحو ما سيراه القارئ فى فصلها الخاص .

وأنا لا أنكر أنه صادفتنى جوانبُ ماكرة خلال تأليف هذا الكتاب لاتساع الموضوع وتشعبه ، فقد حاولتُ أن أرسم صورة واضحة لمذاهب الشعر العربى من أقدم عصوره إلى العصر الحديث ، واضطرنى ذلك إلى استخدام طائفة من المصطلحات اتخذتها لتؤدى وصف هذه المذاهب ، وهى موضوعة فى ثنايا الكتاب بين أقواس صغيرة .

وهذه الدراسة المستفيضة لفن الشعر وصناعته عند العرب ، ولما مرّ به من أطوار وأحداث فى عصوره وأقاليمه المختلفة جعلتنى أتصل بمراجع كثيرة من دواوين الشعراء وما كتبه نقاد العرب عن فن الشعر عندهم وصناعته ، وكذلك رجعت إلى كل ما وجدته يتصل بالشعر والشعراء من كتب أدب عامة أو كتب تاريخية أو جغرافية ، ورجعت أيضاً إلى طائفة من كتب المستشرقين وكتب النقد الأدبى الحديثة عند الغربيين . وإنى لأعترف بأن كتبنا القديمة غنية غنى وافراً بالنصوص التى تفسر ظروف الحياة الفنية تفسيراً وافياً . وأنا لا أزعم أنى كشفتُ عن جميع جوانب الفن والصناعة فى مذاهب الشعر العربى ومناهجه ، وإنما حاولت ذلك ودللت عليه ، غير منكر ما قد يكون فى هذا البحث الجديد من أثارة إبهام أو غموض . وعلى الله قصد السبيل .

القاهرة فى ١٧ من أبريل سنة ١٩٤٣ — شوقى ضيف